1

الفصل الأول

التطور التاريخي والمفاهيم التقليدية للموهبة

❖ مقدمة

❖ أسباب الإهتمام بالموهوبين والمتفوقين عالمياً.

أولاً: تقدم حركة القياس العقلي.

- فرانسيس جالتون Francis Galton
- ألفرد بينيه Alfred Binet
- لويس تيرمان Lewis Terman

ثانياً: الحرب الباردة وسباق التسلح .

ثالثاً: الانفجار السكاني والثورة التقنية والمعرفية.

رابعاً: الجمعيات والمؤتمرات العلميّة.

خامساً: المجهودات الفردية.

❖ مفاهيم تقليدية حول الموهبة والإبداع .

أولاً: الإضطراب العقلي والإنفعالي.

ثانياً: تدني التحصيل المدرسي.

ثالثاً: أحادية الموهبة.

رابعاً: تلاشي الموهبة المبكرة.

مقدمـــــة

الفروق الفردية بين بني البشر في خصائصهم وقدراتهم حقيقة لا جدال فيها منذ وجد الإنسان على هذا الكوكب. ومن الطبيعي أن يظهر الناس اهتماماً خاصاً بالأفراد الذين تميزوا بقدراتهم أو مواهبهم بصورة استثنائية في أحد ميادين النشاط الإنساني التي يقدرها المجتمع. وفي حالات كثيرة كان ذلك الاهتمام وبالاً على أولئك الأفراد لخروجهم على كل ما هو مألوف او معروف. ومع ذلك فقد ظلت الفروق الفردية مسألة تسترعي الانتباه والاهتمام منذ أقدم العصور وحتى الان سواء أكان ذلك على المستوى الرسمي أم الشعبي.

لقد طور الصينيون منذ أكثر من خمسة آلاف سنة نظاماً متقناً لاختيار الموظفين الحكوميين من ذوي الكفاءة والاقتدار. وكان الأساس الذي اعتمدوه لهذا الغرض خضوع المتقدمين او المرشحين لتلك الوظائف لاختبارات تنافسية تقرر نتائجها من هم الأجدر بشغل الوظائف الرسمية. وبعد ذلك بألفي سنة تقريبا أشار أفلاطون في جمهوريته الفاضلة إلى أهمية الفروق الفردية في القدرات العقلية والخصائص الشخصية بالنسبة لميادين العمل التي تناسب الأفراد في ميادين الحياة المختلفة. وصنف في نظريته الأفراد مستخدماً المعادن المختلفة لوصف الافراد الذي ينتمون لكل صنف، فهذا مركب من معدن الذهب، وهذا مركب من معدن الفضة وذلك مركب من معدن النحاس أو الفولاذ. وكان يرى أن الفرد المركب من معدن الذهب يتمتع بنسبة عالية من الذكاء مقارنة بالرجل الفضي أو النحاسي. ورأى أن من ينتمي إلى الصنف الأول، وهو الأرفع يجب أن يتوجه لدراسة الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة باعتبارها موضوعات تتجاوز قدرات الأفراد من الأصناف الأخرى الذين يصلحون لأعمال الجندية أو الأعمال الحرفية والزراعية (Vernon, Adamson, &Vernon, 1977) .

وزيادة على ذلك فقد اشتملت نظرية أفلاطون هذه على معالجة لقضية الوراثة الفطرية والبيئة أو التنشئة الاجتماعية. وكان يرى أن الوراثة هي الأصل في تفسير الفروق بين الأفراد من حيث القدرات العقلية والسمات الشخصية. وتجاوز في نظريته الى ما هو أبعد من ذلك ليأخذ طابعاً سياسياً وتربوياً واجتماعياً. فالحكام من معدن الذهب، وأعوانهم ومساعدوهم من معدن الفضة، أما الحرفيون والفلاحون فهم مركبون من خليط من الحديد والنحاس. أما رعاية الأطفال من الصنف الأول فهي في مرتبة التكليف الإلهي للحكام. وحتى يتحقق ذلك فلا بد أن يقوموا بتشخيص كل طفل عند ولادته للتعرف على نوع معدنه، ثمّ بعد ذلك يختارون الأطفال من معدن الذهب بغض النظر عن معدن آبائهم من أجل إعدادهم ليكونوا حكاما وحراساً لجمهوريته (Branch, &Cash, 1966).

❖ أسباب الاهتمام بالموهوبين والمبدعين

كثيرة هي الأسباب التي ساهمت بشكل أو بآخر في تزايد الاهتمام بتربية الموهوبين والمتفوقين وتعليمهم منذ بداية القرن العشرين. وسنحاول في الصفحات التالية من هذا الفصل أن نعرض لخمسة أسباب رئيسة، وهي: تقدم حركة القياس العقلي، سباق التسلح بين العملاقين خلال الفترة ما بين الحرب العالمية الثانية و انهيار الاتحاد السوفييتي وحلف وارسو في بداية التسعينات، الانفجار المعرفي والسكاني، الجمعيات المهنية والمؤتمرات العلمية والمجهودات الفردية الطلائعية.

وفي ما يأتي نقدم شرحاً مفصلاً لذلك:

أولاً: حركة القياس العقلي

من الطبيعي أن يتأثر تطور الاهتمام بالموهوبين المتفوقين بتطور حركة القياس العقلي، ذلك أن عملية الكشف عن الموهوب والمتفوق تتطلب من دون أدنى شك قياساً لقدراته بطريقة ما. وقد ظل القياس العقلي وما يزال محوراً أساسياً من محاور المشروعات التي تستهدف رعاية هذه الفئة من الأطفال واليافعين والراشدين. وربما كان من المفارقات أن مشكلة التخلف العقلي وضعف القدرة على التعلم هي التي أظهرت الحاجة إلى مقاييس القدرة العلقية، كما أن الحروب الكونية ولا سيما الحرب العالمية الأولى هي الوقود الذي حافظ على استمرار اهتمام الساسة والقادة بحركة القياس، وقدم دفعات متتالية للباحثين والعلماء في مجال التربية وعلم النفس من أجل الاستمرار في تطوير أدوات القياس المختلفة لاستخدامها في اختيار المرشحين لفروع القوات المسلحة المختلفة.

لقد ساعدت حركة القياس العقلي والنفسي على زيادة الاهتمام بتربية وتعليم الموهوبين والمتفوقين وتعليمهم، ودفع البرامج التربوية لرعايتهم خطوات كبيرة إلى الأمام لأنها تمثل المدخل الطبيعي للتعرف عليهم و كشفهم. وقد تطورت حركة القياس العقلي خلال الفترة ما بين 1875 و 1970 بفضل مجهودات الكثيرين من العلماء والتربويون في أقطار مختلفة من العالم، ولكن ثلاثة منهم تركوا بصمات واضحة ويعزى إليهم أكبر الأثر في تقدم هذه الحركة، وربما كانت الإشارة إليهم ضرورية ومناسبة لسياق الموضوع:

فرانسيس جالتون Francis Galton (1822-1911)

إن الفروق بين الأفراد حقيقية وجدت منذ أن وجد أكثر من إنسان على هذا الكوكب. ومع أن هذه الفروق مسألة خضعت للملاحظة والتعليق منذ أقدم العصور، إلا أن جالتون يعد رائداً في محاولاته دراستها وقياسها بأسلوب علمي.

كان العالم الإنجليزي جالتون نفسه على درجة عالية جداً من الذكاء. فقد بدأ يقرأ وعمره سنتان ونصف، وبدأ يكتب وعمره أربع سنوات. وفي ضوء المعلومات التي أوردها بيرسون Pearson عن حياته وأعماله والمهمات التي كان باستطاعته القيام بها في مراحل عمرية مختلفة قدر تيرمان Terman نسبة ذكائه في طفولته بمائتين. وقد بدأ بدراسة الطب في سن السادسة عشرة، وبعد سنتين تحول لدراسة الرياضيات. سافر إلى السودان مرتين في عامي 1845 و 1846، كما سافر إلى جنوب إفريقيا في رحلات استكشافيّة كشف خلالها مناطق لأول مرة. وحاز على الميدالية الذهبية للجمعية الجغرافية الملكية البريطانية ولم يتجاوز الثانية والثلاثين من العمر. وبعد أن ألف كتابين حول الرحلات والتنبؤ بالطقس تحول إلى دراسة الذكاء وقياسه.

وفي عام 1869 نشر جالتون أشهر كتبه في هذا المجال بعنوان "العبقرية الموروثة" Hereditary Genius، وفيه قدم الدليل والبرهان على الدور الذي تلعبه الوراثة في إنجازات الأشخاص الذين اشتهروا في مجالات كثيرة بمن فيهم البحارة والرياضيون والشعراء والمؤلفون ورجال الدولة. ويعد جالتون من أوائل الذين كرسوا دراساتهم وكتاباتهم للذكاء وقياسه. وكان يعتقد بأن الذكاء مرتبط بحواس الإنسان كقوة الإبصار والسمع والشم واللمس وزمن رد الفعل، ولذلك كانت محاولاته لقياس الذكاء تقوم على وضع اختبارات لقياس قوة الحواس. ونظراً لتأثره بنظرية قريبه دارون Darwin توصل إلى أن القدرة الحسية للفرد (أو الذكاء) متوقفة على الاختيار الطبيعي (البيئة) والوراثة. وأضاف بأن أبناء الأسر الغنية تتهيأ لهم الفرص البيئية التي تمكنهم من تحقيق مستويات متميزة من القدرة. وقد عرف جالتون بأنه أول من أجرى بحثاً على التوائم مقدماً بذلك نموذجاً طبّقة الباحثون في دراسات التوائم في القرن العشرين وهو يقوم على أساس عزل المكونات الجينية أو الوراثية عن المكونات البيئية للذكاء (Davis & Rimm, 1989).

وهكذا فإن جالتون هو أول من حاول دراسة الذكاء باستخدام المعدلات المتحققة تجريبياً لمستوى الإنجاز. وقد وجد أن جميع الرجال المتميزين لديهم بعض الخصائص العامة لخصها بالقدرة والحماس والاستعداد للعمل، وعد هذه الخصائص موروثة و أشار إلى أن الأفراد يختلفون في الخصائص الموروثة من حيث الدرجة فقط، وأوضح أن هناك نوعين من القدرة هما القدرة العامة والقدرة الخاصة التي هي بمثابة مواهب أو استعدادات أساسية لعمل ما. وكان يرى أنه من دون قدرة عامة لا يستطيع الفرد أن يكون رياضياً، ولكن لن يصبح رياضياً عظيماً إذا لم تتوافر لديه قدرة خاصة مرتفعة (Branch & Cash, 1966).

يقوم الافتراض الذي بنى عليه جالتون اختباراته لقياس الذكاء على اعتقاده بأن اختبارات التمييز الحسي وزمن رد الفعل هي بمثابة تقدير للأداء الوظيفي العقلي. وقلده في ذلك عالم النفس الأميركي جيمس كاتل James Cattell الذي كانت نظريته قائمة على أساس أن الفروق في حدة الحواس وسرعة الحركة – وما شابه – تعكس فروقاً في الأداء العقلي. وقد وضع اختبارات لقياس القوة العقلية كما تعكسها سرعة الحركة والحساسية للألم وزمن رد الفعل وغيرها. وكان السبب وراء تفضيله لهذه المقاييس على المقاييس التي يمكن تسميتها مقاييس الوظائف العقلية العليا هو اقتناعه بأن هذه السمات يمكن قياسها بدقة أكبر (Mehrens & Lehmann, 1978).

وتجدر الإشارة إلى أن جالتون – شأنه شأن الرياضي الفرنسي Quetelet – اعتبر أن القدرات العقلية مثل كثير من الصفات البدنية يمكن أن تتوزع طبقاً للمنحنى الطبيعي، بمعنى أن قدرات غالبية الأفراد تقع في حدود الوسط والباقي ينحني بالاتجاهين علواً وانخفاضاً.

ألفرد بينيه Alfred Binet (1857-1911)

إذا كانت اختبارات قوة الحواس التي وضعها جالتون ومن بعده كاتل تمثل أول محاولة لقياس الذكاء، فإنه يمكن إعتبار العالم الفرنسي ألفرد بينيه الأب الروحي لاختبارات الذكاء الحديثة. ففي عام 1904 كلف بينيه من قبل وزير التعليم العام الفرنسي بوضع اختبار للتعرف على الأطفال بطيئي التعلم الذين لا يفيدون من بقائهم في الصفوف العادية بمدارسهم حتى يمكن عزلهم ووضعهم في صفوف خاصة لتقدم لهم برامج خاصة، حيث وجد أن عمليات تقييم المعلمين لقدرات الطلبة تتأثر بسمات مثل الطاعة والانقياد والنظافة والاناقة والمهارات

الاجتماعية وغيرها، وأن بعض الأطفال وضعوا في مدارس للمتخلفين بمجرد أنهم يتصفون بالهدوء الزائد أو العدوانية الشديدة، أو لأن لديهم مشكلات في الكلام أو الاستماع أو الرؤية، وكانت الحاجة حينذاك ماسة لاختبار ذكاء. وقد جرب بينيه عدة اختبارات غير ناجحة. ثم بدا له أن الطلبة العاديين والضعفاء لا يختلفون بصورة خاصة في قوة قبضة اليد أو سرعة تحريك اليد لمسافة 50 سم أو قوة الضغط المسببة للألم على مقدمة الرأس أو زمن رد الفعل للأصوات أو تسمية الألوان. وعندما بدأ بقياس القدرة على الانتباه والذاكرة والمحاكمة والاستيعاب أخذ يحصل على نتائج إيجابية، إذ ميزت الاختبارات بين الأفراد الذين قدر المعلمون أنهم يختلفون في ذكائهم.

وكان من أهم إسهامات بينيه توضيح مفهوم العمر العقلي الذي يعني نمو الذكاء، وأن أي طفل قد يكون في مستوى عقلي ملائم لعمره وقد يكون متقدماً أو متأخراً عن ذلك. وترتب على ذلك المفهوم الذي يرى أن الأطفال الذين يتعلمون بسرعة في أي مستوى عمري يحققون ذلك لأسباب منها ارتفاع نسبة ذكائهم (Davis & Rimm, 1989).

وفي عام 1905 توصل بينيه بمساعدة سيمون Simon (1873-1911) إلى وضع أول اختبار فردي متكامل للذكاء عرف بمقياس بينيه. وكان يشتمل على ثلاثين اختباراً فرعياً متدرجة بشكل منتظم وفق صعوبتها، ولا يتطلب النجاح فيها خبرة معينة نتيجة برامج تعليمية محددة. وقد حصل بينيه على معايير للاختبار من خلال عينة تقنين محدودة بلغ عدد أفرادها خمسين طفلاً تراوحت أعمارهم بين سن الثالثة وسن الحادية عشرة مفترضاً أنهم متوسطو القدرة العقلية بناء على تقديرات معلميهم، بالإضافة إلى عدد آخر من الأطفال المتخلفين عقلياً.

وقد نشرت صورة الاختبار المعدل أول مرة في فرنسا عام 1908. وتميز التعديل بزيادة المدى العمري للاختبار حتى سن الثالثة عشرة، وإعادة ترتيب بنود الاختبار وإعادة تقنينه على عينة بلغت 203 أطفال. أما التعديل الذي أجراه بينيه بمفرده عام 1911 فقد شمل إعادة ترتيب الاختبارات وزيادة عددها لتصبح 54 اختباراً. ومع أن بنود الاختبارات اشتملت على كثير من المهمات المتنوعة، إلا أن بينيه وسيمون اعتبرا الذكاء سمة عامة وعرفاه بدايةً على أنه القدرة على التكيف بفاعلية مع المحيط.

وقد ترجمت الاختبارات إلى الإنجليزية ونشرت في بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية